

٢- صفحة بيضاء

في تاريخ الحجر الأسود

الأستاذ محمد الطيب النجار

عجب أنهم يعلمون أنها لا تستطيع أن تغرق ذباباً ولو اجتمعوا له .. فهي لا تملك دفع الأذى ولا رد العبث الذي يراد بها أحياناً ، ويشاهدونها حينما يغيرها كرم الغداة ومر العشي ، وهي صاغرة مستسلمة وبرغم ذلك يعبدونها لأنها في زعمهم آلهة أو هي تقربهم من الآله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقد ناقشنا في العدد السابق ما ورد في شأن هذا الحجر من آثار، وسننبع هذا الحجر اليوم في مختلف العصور التي مرت به ، لنرى من خلال ذلك مبلغ حرص الولاة والحكام قبل الإسلام وبعده على صيانتها والعناية به ، وكيف توازنوا على طول الزمن حبه وتقديره .

يذكر المؤرخون أن قبيلة جرهم قد نزلت بمكة على عهد اسماعيل عليه السلام فتزوج منهم ، وظل أمرهم يعظم وساعدتهم يشتد على مر الزمن ، حتى أصبحوا ولاة البيت وحجابه ، بل صار لهم الأمر والحكم كله - ويذكر المؤرخون كذلك أن سبيلا

وضع ابراهيم (عليه السلام) الحجر الأسود في موضعه من البيت المحرم ، ثم أتم بناءه مع ولده اسماعيل ، وأذن في الناس بالحج .. وهذه اليد التي وضعت هذا الحجر الأسود في مكانه وأظهرت للعالمين قدره وغرست في قلوب المؤمنين محبته .. هي بذاتها اليد التي تسلطت من قبل على الأصنام فضربتها الضربة القاصمة ونفت ما يحيط بتقديسها من وهم وخرافة ، ودعت إلى نبذ الاحجار والقضاء على عبادتها

والحجر الأسود جزء من الكعبة المشرفة فهو جماد لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يعطى ولا يمنع ، وحينما يقبله المؤمنون فهم يوقنون حق اليقين أنه

لا يحس تقيلهم ، وحينما يكبرون إلى جواره يعتقدون أن تكبيراتهم لا تعيها كتلته ... ولكن عيون المؤمنين إذا تطلعت إليه ، فانما يكون ذلك من خلال إيمانهم ، وليست الأصنام والاولئان إلا رجس من عمل الشيطان ، يصنعها السفهاء بأيديهم ومن

أصاب البيت على عهدهم فأعادوه على بناء
ابراهيم عليه السلام .

ثم اصاب الغرور جرهما وادركها داء الامم
فبغت على الناس واستخفت بالحرمات
فأذنتها قبيلة خزاعة بحرب وأخرجتها من
مكة وكأنها عز عليهم أن يتركوا البيت الحرام
كما وجدوه على عهد اسماعيل عليه السلام ،
فعمد عمرو بن الحارث بن مضاخ الجرهمي
الى الحجر الاسود فخلعه من موضعه ، ودفنه
في بئر زمزم ، ثم ترك البيت وقد سلب منه
أعز شيء فيه ، فكان موضع الحجر المفقود
كالعين المفقودة يذكر الناس دائما بسا
اقبلت عليه جرهم من الذنب والخطيئة .

ولكن لم يمكث هذا الوضع الا قليلا من
الزمان ، حتى علمت خزاعة بالمكان الذي
دفن فيه الحجر فأخرجته واعادته الى
موضعه الذي كان عليه ، ثم جاء بعد
ذلك قصى بن كلاب ، فأخرج قبيلة خزاعة
من مكة ، وأصبح له ولائها من بعده
خدمة البيت من الحجابة السقاية والرفادة
.. وقصى هذا هو الجد الرابع للرسول
عليه الصلاة والسلام وقد ظل أبناؤه يتوارثون
خدمته حتى ظهر الاسلام في شبه الجزيرة
العربية .

ومن الثابت أن الوثنية دخلت الى مكة
في عهد قبيلة خزاعة ، وانتشرت في جزيرة
العرب حتى أصبح لها الغلبة على سائر
الاديان في هذه البلاد ، وكان لابد اذن
أن يكون تقديس الاحجار قد أخذ طريقه
الى الحجر الاسود ، وأن يتغير الوضع
القائم في قلوب الناس نحوه ، وأصبح
حجرا مقدسا تحيط به على حد زعمهم
الاسرار العجيبة وتكمن وراءه الفوائد
العاجلة والآجلة ، فهو يكفر الذنوب ،
ويفرج الكرب ، ويقضى الحوائج ، وهو
يمتص خطايا العباد الذين يتمسحون به
ويتضرعون الى جواره .. الى غير ذلك من
الآراء والمعتقدات الفاسدة التي آمن بها

الخزاعيون ، وأبناء قصى ، ومن اتبعوا
سبيلهم ، ممن يقدسون الاحجار ويؤمنون
بآثارها واسرارها .

ولقد أصاب الكعبة المشرفة سيل جارف
قبل البعثة النبوية بخمسة أعوام فتصدعت
جدرانها ، وأوهن بنيانها ، وكان لابد من
هدمها . واجتمعت كلمة العرب على بنائها
من جديد ، فلما وصلوا في البناء الى مكان
الحجر الاسود ، أرادوا أن يضعوه في
موضعه ، فنشب خلاف بينهم وتناقسوا على
احراز هذا المجد والشرف ، حتى كادت
تنشب الحرب بينهم ، ودام هذا الشقاق والحصام
أربع ليال لم يستقروا فيها على أمر . ولم
يهدأ لؤم بال ، فأشار عليهم أبوامية بن المغيرة
المخزومي ، بأن يحكموا بينهم رجلا يرتضونه .
فقالوا « لنكمل الامر لأول داخل علينا » فكان
محمدا بن عبد الله ، ففرحوا واستبشروا
لما كان يعرف من صدقه وإخلاصه وأمانته
وقالوا : هذا الأمين رضينا ، فلما أخبروه
الحجر بسط رداءه وقال : لتأخذ كل
قبيلة بناحية من الثوب ، ثم وضع فيه
الحجر وامرهم برفعه حتى انتهوا الى
موضعه ، فأخذوه ووضعوه فيه .

وجاء الاسلام بعقيدة لا غموض فيها ولا
التواء ، وظهر للعقلاء من الناس ما تقوم
عليه عبادة الاصنام من الاوهام والخرافات
وأخذت تلك الهالة التي غشيت الحجر
الاسود تنجاب عنه شيئا فشيئا ، وأصبح
المسلمون من وراء نبيهم ينظرون اليه ، نظرة
ابراهيم عليه السلام فلا ترى قلوبهم الا
خالق الحجر ورب البيت .

ولقد تعرض الحجر الاسود لاحداث
كثيرة ، ولولا أن الله قدر له الحفظ والبقاء
لعضفت به الكوارث ، وتبدد بين ركam
الحوادث ، فعندما وقعت الفتنة بين عبد الله
بن الزبير وبين الامويين ، أعاد عبد الله بناء
الكعبة بعد تصدعها على يدي الحجاج بن
يوسف الثقفي ، وصب طوقا من الفضة

من محاولات يقوم بها الملاحدة للنيل من مبادئ الاسلام وتعاليمه ، ويرون في الحجر الاسود نقطة ضعف يمكن ان يصوبوا اليها سهامهم الطائشة لينفذوا من خلالها الى اغراضهم الخبيثة !!

اجل .. انهم يقولون ان الحجر الاسود بقية من بقايا الوثنية ، وان في وجوده بالبيت الحرام وتقدير الناس له وتضرعهم الى جواره انما هو احياء لعبادة الاصنام .. ونقول ليات لنا هؤلاء بمسلم واحد يعرف مبادئ الاسلام يؤمن بأنه ينفع أو يضر أو يشفع لمذنب ، أو يستجيب لداع .. فان لم يفعلوا - ولن يفعلوا - فليقفوا عند حدهم ، وليعلموا أن تعاليم الاسلام ومبادئه قد استمدت قوتها من الحجة والبرهان ، وليس فيها ما ينأى عن الحكمة ، ويستعصى على الفهم ، وأن هذا الحجر المائل في ركن الكعبة ، انما هو نقطة يبدأ منها الطواف وينتهي اليها - وان تقبيله واستلامه ليس تقديسا ولا عبادة ، وإنما تسجيل عدلى لبدء الطواف وانتهائه .

والحجر الاسود - بعد ذلك - اثر تليد ، يرحل الى الاجيال - عبر القرون - ذكرى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وهى ذكرى خالدة تعزز بها النفوس ، ويقوى في ظلها الايمان .

حول الحجر ليثبتته في موضعه ، ولكن الفضة تزلزلت بمضى الوقت وتعلقت حول الحجر حتى خشي الناس عليه أن يسقط من مكانه ، فلما ذهب الرشيد الى الحج أمر بالحجارة التي بينها الحجر الاسود فنقبت بالمالس من فوقها ومن تحتها .

ويذكر التاريخ ان عدو الله « أبا طاهر القرمطى » وفد الى مكة سنة ٣١٧ هـ ، وفعل فيها هو واصحابه أموراً منكراً ، ومنها أن بعضهم ضرب الحجر الاسود بدبوس فكسره ثم قلعه من موضعه وذهب به الى بلاده في البحرين ، وبقي موضعه خالياً يضع فيه الناس أيديهم كما كانوا يلمسونه في حال وجوده ، وبذل كثير من الولاة والحكام المسلمين المحاولات لاسترداده ، ولم يتم ذلك الا في سنة ٣٣٩ هـ ، وقال القرامطة عند رده : « أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله » . والقرامطة من اصحاب المذاهب الهدامة والعقائد الفاسدة - أرادوا بخلع الحجر أحداث فتنة بين المسلمين تؤدي الى ما يريدونه لانفسهم من النفوذ والسلطان ، فلما وجدوا انهم سيكونون وقوداً لهذه الفتنة أرغموا على رده الى موضعه وسننوا غرضهم السيئ بقولهم هذا « أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله » أما من ناحية التشهير بالمسلمين عن طريق هذا الحجر ، فانه لم يخل عصر من العصور

